



## أنشودة الأمل التي لن تموت

**يس الفيل<sup>(١)</sup> هو (أحد أولئك الذين أدانوا القبح والدمامة، وشجبوا الرذيلة والفحش، ودعوا إلى الفضيلة، وساندوا الحق، وعضوا بالنواجذ على أصالتهم وكانوا الفرحة في ليل الحزن الثقيل)<sup>(٢)</sup> كما جاء في مقدمة ديوانه «الأمل وأحلام النورس». كتب إلي في رسالة خاصة:**

(إن عزائي الوحيد في معاناتي هو أن طرح هذه

المعاناة سوف يسعد أناساً قد لا ألتقي بهم إلا على الورق، وقد لا أسمع عنهم مطلقاً، فهم يتجسدون أمامي في لحظة المخاض، وأحاول ألا يروا مني إلا ما يسرهم ويعبر عن مشاعرهم، ويؤكد لهم أن الهم والفرح الإنساني واحد وإن اختلفت الوجوه، وتفايرت اللغات وتباينت الأحاسيس).



أشرف قاسم - مصر

هذا ما ينبغي أن يكون عليه الشعر والشاعر في نظر الشاعر الكبير يس الفيل، ويس الفيل غني عن التعريف به فهو قامة شعرية شامخة، وصوت مصري أصيل، بدأ في نشر قصائده في مرحلة مبكرة من حياته.

نشرت أولى قصائده تحت عنوان «ذكريات من القرية» في عام ١٩٦١م، بمجلة «الشهر» التي كان يرأس تحريرها المرحوم سعد الدين وهبة، وهو عضو بأكثر من رابطة وجمعية أدبية، حصل على جائزة البابطين في الشعر عام ١٩٩١م.

صدرت له عدة مجموعات شعرية هي: «الميلاد وحكايات الخريف، وتوقيعات حادة على الناي القديم، وأغنية بلا وطن، وأحزان الكمان، وهمسات الصدى، والزحف على حد



يس الفيل

المستحيل، وحصاد الإيمان، والأمل وأحلام النورس»؛  
إلى جانب مجموعة قصصية، وديوان مشترك.

إن إبداع يس الفيل يجمع بينه خيط واحد هو ذلك  
الحس الرومانتيكي الذي لا ينشد الشاعر من خلفه سوى  
التوصل إلى الحقيقة موظفاً كل أدواته الرومانتيكية لهذا  
الغرض، من سلاسة لغته، وخياله، وعاطفته، وأفكاره.  
فالحب لديه قيمة عليا تدرج تحتها كل القيم النبيلة  
في عقد منتظم، ويقول في أولى قصائد ديوانه «همسات  
الصدى» تحت عنوان نجوى:

**براءة الحب فيكم يا بني زمني**

تحيي هوى لم يزل يحنو على بدني

**فإن تألق شعري في محافلکم**

وامتد منكم لريح طاردت سفني

وانساب في الروض لحن عشت أطمعه

شهد الليالي إلى أن صار من محني

**عاد الصفاء لمن شاخت مشاعره**

دفا من الشوق يحو رعدة الوهن<sup>(٣)</sup>

وبناء على أساس اعتبار الحب طريقاً للخلاص تأتي  
أغلب قصائد الديوان توقيعات على أوتاره، فهو ملتزم  
بالدفاع عن القيم العليا التي تركز على هذا الحب من  
حرية وعدالة:

**لا أملك الآن غير الحب أحمله**

في القلب حتى ولو بالحب أنتحر<sup>(٤)</sup>

ويقول:

**الجذب يورق لو أن القلوب صفت**

للحب وامتشتقت ما ليس يمتشق

**والسيل لو يتوالى فوق رابية**

من الصخور فإن الصخر ينفلق<sup>(٥)</sup>

إن ارتباط يس الفيل بالقرية ارتباط وثيق بالطبيعة،  
وهي الأم الرؤوم لكل شعراء الرومانتيكية الذين تتوحد  
لديهم النظرة للإنشئ والطبيعة:

**لماذا وليك يرخي سدوله**

مفانيك تجذب طير الخميعة

إذا نام دارت حوائيه حلمًا

وألقت به للرياض الظليلة

وإن قام طار اشتياقًا إليها

وخلف أرض الهموم الثقيلة

**لماذا يهاجر طير بريء**

لأرض على مثله مستحيلة

برغم اليقين يطول السؤال

**لماذا؟ وما كنت يوما بخيلة<sup>(٦)</sup>**

إن تبين العلاقة بين عنصر المكان والشاعر يمكننا من  
فهم أوسع وأدق لهذه الشريحة الزمنية الطازجة في فترة  
التغيرات الاجتماعية والحضارية التي تحدث حولنا في هذه  
الحقبة المهمة من تاريخنا العربي، فيوم سقوط الشيوعية  
نراه يقول:

**الشرك بات بأرضه ينهار**

فلم العويل ومن عليه يغار



بين الرفاق تناثرت أشلاؤه  
وعدت عليه وأحرقته النار

عبدته فوق الأرض بعض شرازم  
لم تدر أن المنتهى أصفار<sup>(٧)</sup>

وفي مكان آخر من ديوانه «همسات الصدى» يستهض  
الهمم ويدعو إلى توحيد الصف العربي بلهجة عاتبة فيذكر  
أولا بسالف الأمجاد:

هنا ابتدأت بإخناثون دنيا  
بها التوحيد في النيل استجابا

هناك محمد صلوات ربي  
عليه ولم تنزل فصل الخطابا

دعائمه التي نهضت أقمت  
على شرفاتهم دُمى كذابا

وأسراب الجراب تخطفتكم  
فما ملك الشتات لها عقابا

ثم يزيد من عنف لهجته العتائية فيما يشبه وخز الإبر:  
صفاركم استحووا منكم وحادوا

عن الهدف الذي بكم استرابا  
وما اقتنعوا بكم نغما معادا

كسا أفق انتفاضتهم ضبابا  
فشقوا بالحجارة ألف درب

ليندفعوا بها أسدا غضابا<sup>(٨)</sup>  
إن تلك النزعة الإنسانية التي ملخصها أن يتبنى

الشاعر قضايا مجتمعه ويدافع عنها على اعتبار أنه لسان  
حال هذا المجتمع، تلك النزعة تصيب الشاعر بالقلق

والإحساس الدائم بجسارة المسؤولية الملقاة على عاتقه،  
ولذا كي يستطيع الشاعر أن يؤدي واجبه ذاك على النحو

المرجوي يجب عليه أن يتسلح بقوة العقيدة، وهذا ما فعله يس  
الفيل، اسمعه وهو يقول:

طريق الخلاص طريق يطول  
ويمتد بالحرب فيه الحوار

فلا تقنطي إن عون الإله  
إذا حل يجتاح لضح الغبار

وحسبك أن تنجحي في اللقاء  
إذا ما انطلقت إلى الاختيار

على قدر إيمانك العبقري  
يكون التألق في الاختيار

وبالحب والصدق والاتجاء  
لرب السماء يقرر القرار

طريق الخلاص طريق الإله  
فمدي به الخطو للانتصار<sup>(٩)</sup>

وعلى أساس من هذا الإيمان الراسخ ألا طريق سوى  
الله ينطلق مبشراً بفد أفضل في ظل الحب الذي هو حلم

ملايين البشر، الحلم الذي يملأ كيانه، ولأجله يخضر  
الشجر، وينفلق الحجر بالماء، فيروي العطاش:

يا رحلة الحرف كوني أنت راحلتي  
إني تجرعت من كأس الهوى صابا

ما رحت يوماً إلى دنياه ظامئة  
إلا سقتك يداه الشهد أكوابا<sup>(١٠)</sup>

## ديوانه «المرايا في زحام الأقفعة»

ولذا حمل هذا الديوان هموم العالم العربي منذ سقوط بغداد:

أناشد العلم فيك - الآن - والأدبا  
وأستفزك إبداعاً بنا وثباً  
وأستجير بما أملتته زمناً

منذ استعاد بك التاريخ ما ذهباً  
بغداد يا مشرق النور الذي انكفأت

أقماره.. والتوت عن مقصد حقبا  
إن المأذن تبكي فيك حيرتنا

منذ انحرفنا خطأ والمشهد انقلباً<sup>(١٢)</sup>  
وفي مكان آخر يؤرخ لسقوط بغداد:

في اليوم الثامن من أبريل  
في العام الثالث

بعد الألفين

من هذا القرن الواحد والعشرين

هولاكو العصر

بكل الغلظة

أحكم دق الأوتاد

ما بين البصرة والموصل

ومن الفالوجة.. حتى كركوك<sup>(١٣)</sup>

كما أن «فلسطين الجريحة» عنوان كبير لا يخلو  
منه ديوان من دواوين الشاعر على اعتبار أن بيت  
المقدس جزء من مقدساتنا، والدفاع عنه واجب بكل  
ما أوتينا من قوة، وتلك عقيدة لا يصلح الإيمان إلا  
بها:

مصرى نبيك في الأغلال مصفود

آذاه يا رب تعذيب وتسهيّد

وأرض عيسى تعاني ظلم ظالمه

والمهد يا رب لم يشرق به العيد

وثالث الحرمين ارتعاع في زمن

فيه التآله والطفيان محمود

يتصدر الديوان تقديم بقلم الشاعر نفسه يجيب فيه  
عن تساؤل مهم يفرض نفسه علينا كلما تجاوزنا حدود  
الإحساس، وحلقنا في مدارات التأمل برؤى ثابتة لذلك  
العالم، الذي يقيمه الشعراء، أصحاب الملكات المبدعة هو:  
ما الشعر؟

ويخلص الشاعر في مقدمته الجميلة إلى أن «الشعر  
فن ينقل إلينا صور الحياة من خلال نظرة الشاعر  
الخاصة التي تشمل كل ما يحيط به من كائنات في  
لغة موحية مؤثرة بعيدة عن نثر الحياة اليومية، لغة  
فيها من الموسيقى قوالبها، ومن الرسم صوره وألوانه،  
ومن النحت دقته وإبداعه، ومن الرقص حركاته  
وإيقاعه»<sup>(١١)</sup>.

## بلى.. فالشعر هو أبو الفنون.

وبناء على تلك الرؤية نستطيع الآن أن نقرأ إبداعه  
لنرى كيف استطاع يس الفيل أن ينقل إلينا صور الحياة  
بصخبها وضجيجها وحركتها الدائبة، وكيف استطاع أن  
يتأخى مع الآخر - لا مجاملة - ولكن لأنه إنسان!





وفيه تندلع النيران في وطن

نور السماء به للأرض ممدود<sup>(١١)</sup>

وفي ظل تلك المعركة المصيرية يدعو شاعرنا إلى السلام.. ونبذ العنف على الرغم من الحصار الاقتصادي المفروض على الشعب الفلسطيني بغية تهجيرهم عن وطنه:

يارب..

إن الأرض ظالمة

وظلم القادرين بها

تجاوز في ضراوته الحدود

فأعد إلى المهد المحبة

وانتشل أحباب مريم والمسيح

ولا تكل عمار بيتك لليهود<sup>(١٥)</sup>

ولعل رائعته «الزحف على حد المستحيل» خير مثال على ذلك. وما هو عبر جميع قصائده يدور حاملاً معزفه، مردداً نشيد الأمل، مقررًا أن الحب الحقيقي هو الذي يمنحنا الأمن والسكينة، ويظهرنا من أدران المادة، ومن قيود اليأس فيقول:

دعني

أنقطر شهداً

أنفجر حباً

أنساب رحيقاً

في شفة لم نعرف

يوماً كيف تحب

دعني

فلعلي حين أفجر كل سدود الكره

وكل تلال الحقد

وكل جبال الظلمة في الأعماق

دعني فلفل الكره النابت في الأحداق

يتفجر نهراً

من ضوء

ينضو عن شفة الليل ثياب الحزن

يتجسد وجداً وحتاناً

دعني أتشظى أنغاماً

فلعل البفض إذا ما استمرأ شهد العشق

إذا ما ذاق عطاء القلب

وأدمن صفو الحب.. يحب! <sup>(١٦)</sup>

هذا هو الشعر الذي يرى أستاذنا يس الفيل أنه «صدى النغم الداخلي في وجدان الشاعر والتعبير الصادق والأمين عن الحياة، وعما يؤمن به فيها، وهو التصوير الحي لانعكاسات هذه الحياة وما تعج به؛ على نفس الشاعر المستجيبة دائماً لكل ما تتفعل به من أحداث» ■

هوامش:

(١) يس قلب إبراهيم الفيل (١٩٢٧م -

٢٠١٤م)، شاعر مصري من محافظة

البحيرة. عمل معلماً، وكتباً بمنطقة

دمهور التعليمية. أحد مؤسسي جمعية

الأدباء بدمهور، وعضو رابطة الأدب

الحديث بالقاهرة، واتحاد كتاب

مصر، والأمانة العامة لمؤتمر أدباء

الأقاليم بمصر، نشرت له مجلة الأدب

الإسلامي عدة قصائد.

(٢) ديوان الأمل وأحلام النورس، يس

الفيل، ص ٨، مركز الحضارة العربية، (٩) السابق.

اتحاد الكتاب، الطبعة الأولى، القاهرة، (١٠) السابق.

(١١) مقدمة ديوان المرايا في زحام الأقتعة، ٢٠٠١م.

(١٢) ديوان همسات الصدى، يس الفيل،

دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر،

الإسكندرية، ٢٠٠٠م.

(١٣) السابق، ص ٢٢٣-٢٢٤.

(١٤) السابق، ص ١١٠.

(١٥) السابق، ص ١٤٧-١٤٨.

(١٦) ديوان الأمل وأحلام النورس، السابق.